ناس في الليل

قصة بقلم ضياء الشرقاوي

ادخل يده بين زراير الجاكتة .. ودلفت اصابعه دون ان تتحسس طريقها الى جيب سميحة .. انها تعرف طريقها تماما الى هذا الجيب ولم تخطىء مرة واحدة .. فوق القلب مباشرة .. والتفت حول ورقة مطوية راقدة في ركنها بهدوء .. ونشرها امام عينيه واخذ يتفحص الكلمات الغريبة التي لا يعرف منها شيئا .. افي هذه الكلمات القليلة الشفاء لسميحة من مرضها الطويل ؟ .. وتداخلت الحروف امام عينيه وتشابكت وبرز من بينها وجه الطبيب الشاب وهو يقول له : ـ اشتر هذا الدواء بسرعة .. واعطها جرعة كل ساعتين .

قال له بتردد : ـ اهذا الدواء غال يا سيدي ؟

قال الطبيب الشاب : ـ لا .. لن يزيد عن جنيه

تمتم : ـ جنيه .. جنيه

لطمته هذه الكلمات .. وود لو يقول له : ـ الا تكتب لنا دواء رخيصا شيئا ما بدل هذا الدواء يا سيدي .

وها هو شهر كامل ينقضي ولا يستطيع ان يشتري هذا الدواء .. الورقة البيضاء راقدة وسط ستة وثلاثين قرشا في قاع الجيب .. هذا الشهر ملعون جمد الناس الى جوار مدافئهم او في فراشهم . لا زبائن .. وسميحة لا تمرض الا في هذا الشهر الشحيح .. والميدان فسيح كئيب تضيع حدوده في الظلام .. وثلاث عربات فقط يحلقون حول بعض .. اثنتان صفيرتان .. وواحدة فارهة يلوح عليها العز والثراء .. انه لا يأمل كثيرا في العربتين الصفيرتين والعربة الكبيرة لن تعطيه اقل من خمسة قروش .. خمسة قروش .. العربتان الصفيرتان قرشان او ثلاثة .. ما يأتي منهم سيضعه في جيب سميحة .. ضروري .. تحسس الجيوب الاخرى .. جيبه خال لم يضع فيه شيئا تماما .. فليؤجل موضوع رتق الحذاء .. وهذا جيب الايجار فيه قروش قليلة .. وجيب زوجته .. وجيب الاكل .. وجيب محمد .. جيوب كثيرة واسعة خالية الوفاض .. وثنى الورقة برفق .. وادخل يده بين زراير الجاكتة .. ودلفت اصابعه دون ان تتحسس طريقها الى جيب سميحة حيث تركت الورقة في القاع .. وانتشله من تفكيره صوت عربة من العربتين الصفيرتين .. واندفع نحوها يلوح بيده ويتقدمها .. وعندما حاذته .. اسقط الرجل في يده قرشين .. ومرقت تقتحم الظلام .. رفع الحارس عم بيومي القرشين الى شفتيه وقبلهما بامتنان .. وامتدت يده بهما بين الزراير ودلفت الى جيب سميحة .. وخيل اليه ان الكلمات تجمعت وبرز من بينها وجه الطبيب الذي اخذ يحصي النقود .. فتمتم عم بيومي كأنه يحادثه ويطمئنه : ـ وقل العربة الثانية قرشين اخرين .... والعربة الكبيرة خمسة قروش .. يكون الحساب خمسة واربعين قرشا .. هانت .

واحس بالارتياح .. خيل اليه انه لمح ابتسامة على وجه سميحة .. اخذت الرياح الباردة تجوب الميدان طولا وعرضا مثل الكلاب الجائعة المجنونة تطارد بعضها البعض .. لقد صارت اكثر من العربات هذه الايام .. والرياح تجوب الميدان دون ان تدفع شيئا .. ماذا سيقبض من الرياح ؟ ... هل هي تعرف ان وراءه في البيت ابنة مريضة تحتاج الدواء .. وفي قدميه حذاء يحتاج الرتق .. وسكنا يحتاج الايجار .. وولدا وزوجة .. الرياح لا تعرف شيئا ؟.. ولا تريد ان تعرف شيئا .. حتى ولا تريد ان تتركه واقفا في مكانه وحيدا في امان الله .. بل تصفعه وتعابثه .. وتجذب ذيل جلبابه ... وشق طريقه الى العربة الصغيرة وجلس الى جانبها يحتمي بها من عبث الرياح .. وسميحة ترمقه بعينيها الذابلتين في حنان .. ود لو اغلقتهما ونامت فلماذا تستيقظ معه هي الاخرى حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل .. أتؤنسه وتبدد وحشته ؟.. فلتنامي .. معي العربتان تؤنسان وحشتي .. يومان او ثلاثة وساشتري لك الدواء .. وتستردين صحتك وعافيتك وتلعبين مع الاولاد في الحارة كما كنت تلعبين .. واسمع صوتك يأتيني من بعيد .. وتتعلقين بعنقي .. واضمك الى صدري .. اليس لهذا الليل من نهاية ؟.. اين صاحبا هاتين العربتين ؟.. هل ناما في الملهى ؟.. لا بد انهما قد ناما هناك .. فكثيرا ما ينامون في اماكنهم من فرط السكر وينسون انفسهم ويتركونني ملقى بجوار عرباتهم .. والقي نظرة الى الملهى .. الموسيقى الصاخبة الضاربة تغفو .. والانوار تخفت .. والطريق الى البيت طويل .. ساعة كاملة حتى يصل اليه.. ساعة كاملة .. وتخيل صاحب العربة الصغيرة يقول له : ـ « اين تسكن ايها الرجل ؟ »

ـ في السيدة عائشة .

ـ ياه .. انها بعيدة جدا .. والدنيا ليل .. تعال معي لاوصلك

وتمرق بهما العربة في الطرق الكثيرة لا يهمها الوحل ولا البرد... كل شيء غرق في النوم .. من هنا يا سيدي .. نعم .. على طول .. الشارع القادم .. في اخره .. في ماذا تفكر ايها الرجل ؟.. ان ابنتي سميحة مريضة منذ شهر .. انها بنت حلوة ستحبها ان رأيتها .. الم تعرضها على طبيب ؟.. نعم ... نعم يا سيدي والله .. وكتب لها الدواء .. ان الدواء غال يا سيدي .. ثمنه جنيه .. جنيه كامل ... وهذا الشهر شحيح .. شهر بارد .. والرياح اكثر من العربات .. الرياح لا تدفع شيئا يا سيدي ... لقد وفرت ثمانية وثلاثين قرشا حتى الان .. خذ ايها الرجل هذا الجنيه واشتر الدواء . ادامك الله يا سيدي في صحة وعافية .. انها بنت حلوة ستحبها ان رأيتها .. وفتح عم بيومي عينيه في ذعر على صرخات رجل .. وقفز حارس العربات من مكانه .

ـ ايها الحمار .. اين انت ؟

ـ هذا هو انا يا سيدي

كان صاحب العربة الفارهة رجلا قصيرا ضخما .. له رأس كبير .. وعينان تلتمعان بالسكر والغضب .. وتقف الى جانبه فتاة رفيعة من فتيات الملهى .. رآها كثيرا تذهب مع الرجال في مثل هذا الوقت .

ـ اين فوانيس العربة يا لص ؟

كأن لكمة قوية سقطت فوق رأس الحارس فأفقدته الوعي .. فوانيس ؟.. اي فوانيس ؟.. ماذا يقصد ؟.. هل سرقت وهو نائم ؟.. واخذ يحملق في العربة بذهول .. والرجل الضخم يعدو حولها ويلوح بيديه في عصبية .

وتمتم : ـ والله يا سيدي .

ـ اين كنت ؟

ـ لم اتحرك من هنا يا سيدي .. والله

ـ اذن كيف سرقت الفوانيس ؟

ـ لم اتحرك من هنا يا سيدي والله

كان الرجل يزداد صخبا ويتحسس اماكن الفوانيس في غضب .. ولم يعرف الحارس ماذا يفعل وقد تملكه الخوف واخذ ينظر هنا وهناك لعل احدا ينجده ويقف الى جانبه .. ليته يستطيع ان يعدو باقصى سرعة .. ويذوب في الظلام .

ـ والله لم ارها يا سيدي

ـ اذن من سرقها ؟..

ـ والله ...

ـ يا عسكري .. يا عسكري .. لا بد ان آخذك الى القسم

واخذ صوت الرجل يمزق صمت الميدان .. وصمتت الرياح مرة واحدة وفجاة .. واخذت عينا الحارس تدوران هنا وهناك ولا تريان شيئا .. وامسك به الرجل من جاكتته الصفراء .. واخذ يجذبه وراءه .. وخرجت الفتاة من صمتها وقالت للرجل : اتركه يا سنسن .. لا تعكر دمك .

وازدادت ثورة الرجل ، وقال : لا بد ان آخذه الى القسم .. لم يسرق الفوانيس احد غيره .. اللص .

ـ والله يا سيدي .. اخذني النوم رغما عني .. لم ار الفوانيس.

ووقعت عينا الحارس على رجل قادم فصرخ مستغيثا : ـ الحقني يا عم والنبي .. ربنا يخليك

وتجمع ثلاثة رجال اخرون على صوت الجلبة .. وحاولوا ان يتفاهموا مع الرجل الضخم الذي زاده السكر ثورة وغضبا .. وازدادت قبضته على الجاكتة الصفراء تشبثا واصرار .. وابتعدت فتاة الملهى قليلا ووقفت الى جوار العربة ترقب المعركة في ملل وغيظ .. وانفلت الرجال يتفحصون القوانين .. ويقدمون الحلول والترضيات الممكنة .. ويستثيرون كرم الرجل واريحيته .. دون فائدة .

وقال احدهم : ـ كم ثمن الفوانيس ؟.. جنيه .. اثنان .. افرض ان هذا المبلغ سرق من سيادتك .

ـ هذا الرجل مسكين يا سعادة البك .. وعنده اولاد

قال الرجل بغلظة : ـ لا يهمني ذلك .. القسم او يدفع ثمن الفوانيس .

ـ كم ثمن الفوانيس ؟

ـ ثلاثة جنيهات

ـ لا .. ليس ثلاثة جنيهات .. لن يزيد ثمنها عن جنيهين

ـ ثلاثة جنيهات او القسم

ـ يا سعادة البك

ـ ثلاثة جنيهات او القسم .. ليس لدي وقت لاضيعه

قال احد الرجال : ـ فلنذهب الى القسم .. لن يفعلوا له شيئا .. ثلاثة جنيهات ؟.. انك تبالغ .. الرجل غلبان وليس له ذنب

كان عم بيومي صامتا .. تجذبه قبضة الرجل الضخم الهائج هنا وهناك .. والرجال الاربعة ثائرون كأن القضية قضيتهم هم .. وفي عيونهم الاصرار .. وتحرك الرجال خطوات .. وتلاقت اعينهم لحظة ثم قال احدهم لزملائه : ـ ما رأيكم يا رجال ؟.. فلندفع له المبلغ وامرنا لله

رفضت اعينهم الاذعان للرجل .. وتهامس رجلان ثم قالا : ـ انتظر قليلا يا سعادة البك

وتوقفوا جميعا ملتفين حول الحارس .. وواصل احدهما : ـ ان الرجل فقير .. وصاحب عيال .. وسندفع لك النصف ولتتحمل انت النصف .. هذا عدل

قال الرجل باصرار وهو يهم بمواصلة الطريق الى القسم : ثلاثة جنيهات او القسم

كور احد الرجال قبضته وفكر في ان يطوحها في وجهه الضخم ويصرعه ارضا .

سأل رجل منهم الحارس : ـ هل معك نقود ؟

هل يقول لهم « لا .. » هل سيكون كاذبا حينذاك .. ليس له الحق في قرش واحد من قروش سميحة الثمانية والثلاثين .. انه يستطيع التنازل عن القروش القليلة التي ادخرها للايجار .

وتمتم : ـ نعم

ـ ارنا كم معك ؟

ومد يده في جيب الايجار .. واخرج قبضة من القروش واسقطها في يد الرجل الذي اخذ يحصيها ..

وقال : ـ ثلاثة وعشرون قرشا فقط

تمتم عم بيومي : ـ ليس معي غيرها

ـ كل واحد يمد يده في جيبه ويخرج ما يستطيع يا رجال .. لوجه الله

ومد الرجال ايديهم في جيوبهم .. واسقط كل منهم ما استطاع في راحة الرجل : ـ ثلاثة وعشرون ... ثلاثة وثمانون .. جنيه وثلاثة قروش .. جنيه ونصف .. ومني نصف جنيه .. فيكون المجموع جنيهين .. ها هما جنيهان يا سعادة البك واترك الرجل

قال الرجل الضخم : ـ ثلاثة جنيهات كلمة واحدة .. ساعرف كيف يدفعها في القسم

ـ يا سعادة البك .. جنيهان

ومد عم بيومي يده خلال زراير الجاكتة .. وتحسست اصابعه طريقها الى جيب سميحة .. واحس بيد ابنته تمتد من الجيب وتبعد يده عن النقود .. لا .. لا يا أبي .. سيأخذني الى القسم يا ابنتي..

انه مصر .. ووحش .. وسادفع الجنيهات الثلاثة هناك او احبس .. ساموت يا ابي .. ساموت .. اني انتظر الدواء منذ شهر .. السعال يمزق صدري .. والدماء تلوث شفتي .. سيعوضنا الله يا ابنتي وليرزقنا برزقك .. لماذا تمتلىء عيناك بالدموع يا ابنتي ؟.. وبرز وجه الطبيب من بين الكلمات .. وقال حازما : ـ اشتر هذا الدواء بسرعة هل اعود اليها وجيبها خال .. ماذا ستقول سميحة ؟.. اليوم في جيبك عشرة قروش يا سميحة .. اليوم في جيبك واحد وعشرون قرشا يا سميحة .. اليوم صارت ستة وثلاثين .. ساشتري لك الدواء قريبا يا سميحة .. ماذا ساقول لها اليوم ؟.. هل ساقول لها لم يعد في جيبك مليم واحد يا سميحة .. هانت يا ابنتي .. لا .. ما زال الطريق الى الجنيه طويلا .. ما زال الطريق الى الشفاء طويلا .. كانت اصابعه تتلاحم .. وتتقدم بتردد .. هل تواصل الطريق وتنتزع من بين اصابعها الواهنة حق الدواء رغم الدموع ؟.. أم تنكص وليكن ما يكون .. يا ابنتي العزيزة .. اعدك وعدا صادقا .. ساشتري لك الدواء قريبا .. سأسأل جارنا قرضا مرة ثانية .. سأستعطفه .. وستأتي في الغد مائة عربة وعربة .. وكل النقود ستكون لك .. ستكون للدواء ـ صدقيني .. لن استطيع أن ادفع لهذا الرجل ثلاثة جنيهات بمفردي في القسم وسيحبسونني .. وربما سحبت مني الرخصة .. هل يرضيك هذا ؟.. لن تريحني اذا حبسوني في القسم .. ولن استطيع ان اراك .. اما في الغد .. فستأتي مائة عربة وعربة بالتأكيد .. وكل النقود ستكون لك .. خذها يا ابي .. خذها .. واصطدمت اصابعه بالقروش .. وافرغ قبضته في يد الرجل وهو يقول : ـ هذه نقود سميحة .. ثمانية وثلاثون

قال الرجل الضخم : ـ من يفتشه يجد معه مائة جنيه على الاقل

قالت فتاة الملهى في غضب : ـ لماذا كل هذا الاصرار ؟.. الرجل عجوز ومسكين .

قال الرجل : ـ انا واثق انه هو الذي سرق الفوانيس

قال الحارس عم بيومي : ـ والله لم اسرق شيئا .. كيف اسرق ولي ابنة مريضة ؟

واصل الرجل : ـ لا بد ان نؤدبهم ونضعهم عند حدهم .. ولعل هذا يكون درسا نافعا .

وانفجر عم بيومي يبكي فجأة .. وازاح احد الرجال قبضة الرجل الضخم بعيدا عن كتف الحارس .. وامسكت الفتاة بذراع الرجل وقالت : ـ يكفي هذا .. يكفي هذا .. انه رجل مسكين

ـ لا يهمني هذا .. انه لص

قال عم بيومي : ـ والله لقد اخذت حق الدواء

قال الرجل الضخم وفتاة الملهى تدفعه امامها : ـ دعيني حتى اخذ حقي كاملا .. هذا اللص .

صرخ الحارس : ـ لست لصا .. انا لست لصا .

ـ اتسمعين ماذا يقول الان هذا الحمار ؟

ـ لقد اخذت ثمن دواء سميحة ، ماذا تريد بعد ذلك ؟

كان الرجال متوترين .. لف الرجل الضخم حول عربته .. وجلس امام عجلة القيادة .. فتحت الفتاة باب العربة ومدت يدها بسرعة الى عم بيومي .. واسقطت في يده ورقة نقدية وهمست : ـ « خذ هذه الخمسين قرشا من اجل دواء سميحة يا عم بيومي » .

ـ لا يا ابنتي .. ابقيها من اجلك .. غدا ستأتي مائة عربة وعربة ولكن قبل ان يقول اي كلمة كانت قد اغلقت الباب .. وانطلقت العربة .

القاهرة — ضياء الشرقاوي

لأننا...

لاننا .. لسنا نقول ما نريد
لاننا .. نحدد الاشياء
نعلق الصفات .. والاسماء
في معصم العوالم المجهوله
لاننا .. لا نكشف العوالم التي ...
... تعيش في اعماقنا
لان عصرنا .. بلا بطوله
يكفن الزمان في ابخرة السجائر
.. تطل بسمة مهشمه
مطعونه .. ومظلمه
على وجوهنا التي تآكلت في الظل
تمتد للكابوس ..
تمتص ثدي العطر
ويصبح الكلام .. مومياء
فتنشر الدمامل المقيحه
ذبابة البطالة الروحيه
.. ساعتها يحس ابن العصر انه بلا سماء
يا شعرنا التابوت
ارواحنا .. تموت
لكنما اجسادنا .. مصلوبة العيون
تسير دونما اتجاه
عاداتنا .. احجار سلحفاه
وعندما .. يطل رأس الحلم في حديقة الشعور
وينبض البكاء
في قلب زهرة الحنان .. والفرح
تدق في جمجمة الفؤاد
احذية الغرائز المحنطه
.. .. ..
يا عصرنا التابوت
لو ان في اعماقنا .. عيون
لو ان في اجسامنا اصابع تطول عنق النجم
لو ان في افواهنا .. السنة تقول ما نريد
لو تقدر الدموع ان تذيب صخرة الجسد
لنورت في عصرنا بشارة الميلاد
واسدل الستار يا ضياع
على زمان غربة الانسان في مقابر الاحلام
ودب روح الله في مفاصل الكلام

القاهرة — فرج صادق مكسيم